وليام پـــپر
(WILLIAM POPPER)
المستشرق الامريكى

للدكتور عزيز سوريال عطية

فى يوم ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٤٩ اجتمعت كلة رهط من كبار المستشرقين والعلماء الامريكيين على اصـــدار مجلد«١» ضخم يقع فى قرابة خمسمائة صحيفة لاهدائه الى أستاذهم وزميلهم وليام پپر فى مناسبة بلوغه العـــام الخامس والسبعين من حياته الخصبة المليئة بجـلائل الاعمال والخدمات العلمية فى ميدان الدراسات الشرقية بوجه عام . واللغات السامية والعربية بوجه خاص ، فى أمريكا . وهم بهذا انما يقدمون تحية الجيل الجديد الى الجيل القديم ، ويضربون مثلا رائعا من مثل الاخلاص والولاء والتقـــدير وذكر الجميل لشيخ من شيوخهم ؛ لا عن طريق الخطـــابة واللفظ الاجوف ومصـــيره الى الزوال ، وانما عن طريق البحث والتنقيب والـــكشف عن غوامض العلوم والفنون ، التى طرق هو بابها من قبلهم فانفتح أمامه على مصراعيه ، فولجه وولجه من بعده تلاميذه الذين شاءت الاقدار والاخلاق أن يكتب لاسمائهم الخلود الى جوار أســـتاذهم بتخليد اسمه فى هـــذا السفر الجديد .

وقد قام بالاشراف على نشر هذا المجلد خلفه فى كرسى اللغات السامية وآدابها بجامعة كاليفورنيا ببركلى (Berkeley) المستشرق المعروف الاستاذ

(١) ظهر هذا المجلد بعد ذلك بحوالى سنتين تحت العنون الاتى :

Semitic and Oriental Studies Presented to William Popper. University of California Publications in Semitic Philology, Vol. XI. University of California Press. (Berkeley and Los Angeles 1951).

الدكتور والتر فيشيل (Fischel) ، واشترك فى تحريره أربعة وثلاثون باحثا ، يطيح الذهن عند استعراض بحوثهم ، التى كادت تشمل المشرق والمغرب من اليابان والصين على شاطىء المحيط الهادى الى كاليفورنيا وسان فرنسسكو على الشاطىء الآخر من ذلك المحيط ، ولكن عبر العالمين القديم والجديد .

وان مجلدا كهذا ليصدع الانسان بتعدد مناحى موضوعاته ، وتباين طبائعها ، وتباعد ميادينها ، الى حد يدفعنى الى الاعتراف بعجزى عن الالمام بأطرافه ، ومطالعة ما تفيض به صفحاته فى جملتها مطالعة مستنيرة من أولها لآخرها . وهذا المجلد ان دل على شىء اذن فهو انما يدل على قدر المهدى اليه وعلمه وفضله وأثره فى سجل العلم والخلود .

قابلت وليام پيپر بعد ظهر يوم من أيام الربيع الفائت بمنزله الخشبى على ربوة من ربى مدينة بركلى الجامعية ، تحيط به الحدائق الغناء ، ويشمله الهدوء التام ، وكان الدكتور فيشيل فى صحبتى ، فاستقبلنا بابتسامته الساحرة رغم ماكان يتولاه من ألم بدنى على أثر كسر فى عظم ساقه وهو يتنقل بين أرجاء الجامعة سعيا وراء الكتب والمراجع بسرعة لم تتحملها منه مهما تحملها عقله الفتى . وكان پيپر مسلّما مرحبا باللغة العربية الفصحى ، تجاذبنا أطراف الحديث زهاء الساعة بالانجليزية والعربية على السواء ، وقال لى أن أغلب الاعمال التى يضطلع بها فى شيخوخته نبتت فكرتها عنده وهو فى صدد نشر كتاب « النجوم الزاهرة » منذ أربعين عاما خلت ، ولم يسعفه الزمن والجهد لتحقيقها مع أعبائه الجامعية ، أما وقد تقاعد عن الجامعة فهو الآن يسعى فى تحقيقها واخراجها الى حيز الوجود ، وأول دراساته فى ابن تغرى بردى « كتاب مقياس النيل » .

وكان وليام پيپر فى السابعة والسبعين عندما رأيته ، وهو قصير القامة ، نحيل الجسم ، حليق الوجه ، كبير الرأس ، أشيب الشعر ، عاش للعلم والساميات ، كما يعيش لها اليوم فى خلوته . ولد فى سانت لويس (St. Louis)

من مقاطعة مسورى (Missouri) فى يوم ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٧٤ ، ودرس اللغات السامية بجامعة كولمبيا فى نيويورك تحت اشراف الأستاذ رتشارد جوتيل (Richard Gottheil) ، وأحرز فيها درجة البكالوريوس (A.B.) سنة ١٨٩٦ ، ودرجة الماجستير (M.A.) سنة ١٨٩٧ ، والدكتوراه (PH. D.) سنة ١٨٩٩ ــ وبعدئذ أمضى أعواما ثلاثة فى جولات واسعة بأوربا والشرق الاوسط ، حضر أثناءها على جهابذة العصر من المستشرقين الاوربيين أمثال يوتنج (Euting) ونولدكه (Noeldake) ودرنبورج (Derenbourg) وغيرهم ، ثم قضى السنة الاخيرة (١٩٠١ ــ ١٩٠٢) من تلك البعثة فى زيارة بعض أقطار الشرق الاوسط وهى مصر وسوريا وفلسطين والعراق ؛ حتى يتيح بذلك لنفسه فرصة تطبيق العلم على العمل ، ويقوم لسانه فى الحديث باللغة العربية مع أهلها من الناطقين بالضاد فى أوطانهم الاصلية .

فلما عاد الى وطنه ، بدأ حياته الاكاديمية بجامعة كولمبيا حيث اشتغل بالمحاضرة فى اللغات السامية مع أستاذه القديم ، كما انتدب رئيسا للقسم الشرقى من مكتبة نيويورك العامة ، واستمر فى هاتين الوظيفتين حتى سنة ١٩٠٥ ، حينما انتقل الى جامعة كاليفورنيا التى قضى فيها بقية أيام خدمته ، فعين مدرسا للغات السامية بها فى تلك السنة ، وأمضى بهذه الوظيفة عشرة أعوام كاملة حتى نضج نضوج العلماء ، وترقى أستاذا مساعدا فى سنة ١٩١٥ ثم أستاذا لكرسى اللغات السامية وآدابها سنة ١٩٢٢ وقد قارب الخمسين من عمره ، وظل يشغل هذا الكرسى حتى سنة ١٩٤٥ ، فلما تقاعد عن العمل بالجامعة انتخبه زملاؤه بالاجماع فى السنة ذاتها أستاذا فخريا بينهم (Professor Emeritus) لكى يكون له فى الجامعة مالهم من الحقوق ، وعليه من الواجبات مايضمن لهم الانتفاع بطويل خبرته وصائب توجيهاته .

وقد اتجه پير منذ بداية عهده بالساميات الى الانصراف لدراسة أصول اللغتين العبرية والعربية ، وقطع فى هذا الميدان شوطا بعيدا ، وكتب ونشر فيهما الشىء الكثير ، وله نظريات وبحوث تحليلية فى أدب اللغة العبرية

القديم ، أهمها مؤلف معروف عن سفر أشعيا النبى «[1]» من كتب العهد القديم ، وقد كان لآرائه صدى هائل فى توضيح غوامض الفكر العبرانى ومعميات الاساليب الادبية بأشعار نبوة أشعيا . ولكن عمله الجبار انما يقع فى دائرة الدراسات العربية حيث قام بنشر كتاب « النجوم الزاهرة ، فى ملوك مصر والقاهرة » لابى المحاسن يوسف بن تغرى بردى «[2]» من كبار مؤرخى القرن الخامس عشر الميلادى (توفى سنة ١٤٧٠ م) .

ولكتاب ابن تغرى بردى هذا قصة قديمة ، فقد كان أول من استلفت الانظار اليه المستشرقان الهولنديان خوينبول (Juynboll) وماتثاس (Matthes) فى أواسط القرن الماضى ، فنشرا منه القسم الاول «[3]» ، ثم انقطعا عنه الى أن ظهر المستشرق الفرنسى باربيه دى مينار (Barbier de Meynard) فنشر « استخراجات » منه بالعربية صحبها بترجمة فرنسية فى موسوعة الوثائق الخاصة بالحروب الصليبية «[4]» بباريس سنة ١٨٨٤ — وبعدئذ أسدل الستار على كتاب « النجوم الزاهرة » ، وظل فى زوايا النسيان الى أن أحياه پيرِ بمواصلة العمل الاصلى الذى بدأه المستشرقان الهولنديان فأخذ فى نشر الجزء تلو الجزء ، منذ سنة ١٩٠٩ ، حتى أتم اصدار احد عشر مجلدا منه فى سنة ١٩٣٩ . وقد أردفه بكتاب آخر انتهى من نشره فى سنة ١٩٤٢ ويشتمل

(١) Parallelism in Isaiah. University of California Publications in Semitic Philology, Vol. I, Nos. 3 — 5, pp. 267 — 552. (Berkeley 1918 — 1923.)

(٢) Univeristy of California Publications in Semitic Philology. (Berkeley 1909 — 1942)
بدأ كتاب النجوم بالقسم الثانى من الجزء الثانى وانتهى فى الجزء السابع سنة ١٩٣٩ وقد ذيله بمنتخبات من كتاب «حوادث الدهور فى مدى الايام والشهور » لابن تغرى بردى أيضا — انظر كذلك البحث الذى نشره المؤلف فى موضوع لابن تغرى بردى وعنوانه :
« Hilâl as-Sâbi in ibn Taghri-Birdi's an-Nujûm Az-Zâhira », in Mélanges' Hartwig Derenbourg 1844 — 1908. (Paris 1909) pp. 237 — 243.

(٣) T.G.J. Juynboll and B.F. Matthes, vols. I and II part I. (Leiden 1855, 1861).

(٤) C.A.C. Barbier de Meynard, Extraits du Noudjoum ez-Zahireh. Recueil des Historiens des Croisades. Historiens Orientaux. (Paris 1884). Vol. III, pp. 475 — 509.

على منتخبات من كتاب «حوادث الدهور فى مدى الايام والشهور» الذى يعتبر مكملا لكتاب «النجوم الزاهرة» ؛ وقد قصد ابن تغرى بردى أن يجعل منه ذيلا لكتاب «السلوك لمعرفة دول الملوك» للمقريزى. ونظرا لاهمية كتاب «النجوم الزاهرة» كمنبع من منابع التاريخ المصرى الوسيط ؛ عمدت دار الكتب فى القاهرة الى اصدار طبعة مصرية «١» منه لتجعله فى متناول القراء المصريين .

وللاستاذ پيرر رسالة أخرى فى سنى تقاعده ، وابتعاده عن التدريس والاعباء الجامعية ؛ والتفرغ للعمل العلمى البحت ؛ وتدور هذه الرسالة حول ابن تغرى بردى . فهو بزمع اصدار سلسلة من الدراسات والبحوث التاريخية التى استوحاها من نشر نص « النجوم الزاهرة » . وقد بدأ هذه السلسلة بمجلد أول موضوعه « مقياس النيل » «٢» ، وهو أكمل ماكتبه كاتب عن المقياس ، صاغه مؤلفه فى أسلوب علمى يمتاز بالدقة الرياضية التى بناها على منطق الارقام ، فجاء هذا الكتاب العجيب نموذجا من نماذج البحث فى التاريخ والآثار والجغرافيا التاريخية يكاد لايدانى . وقد قسم المؤلف هذا الكتاب الى قسمين كبيرين : الاول عن تاريخ المقياس ووصفه منذ أقدم العصور ؛ والثانى عن الاحصاءات المتعلقة بمياه النهر فى ارتفاعها وانخفاضها ؛ وقد جمعها منذ الفتح العربى ٦٤١ م الى أخريات القرن الماضى فى سنة ١٨٩٠ م .

ويذكر فى صدر القسم الاول تطور المقياس وانتقاله من مكان الى مكان ، ويتضح من روايته أنه أنشئت فى عصور مختلفة سبعة مقاييس مستقلة بمنطقة القاهرة وما حواليها ، وهى الآتية :

---

(١) ظهر من هذه الطبعة بين سنة ١٩٢٩ وسنة ١٩٤٩ عشرة مجلدات وآخر ما وصلت اليه سنة ٧٥٨ هـ .

(٢) The Cairo Nilometer. Studies in Ibn Taghri Birdi's Chronicles of Egypt : I. University of California Publications in Semitic Philology, Vol. 12. (Berkeley and Los Angeles 1951.) Pages xi, 269.

(١) مقياس منف ، وكانت آثاره لاتزال ظـاهرة حتى القرن الخامس عشر ، وقد قيل ان قراءاته كانت تؤخذ زهاء قرن ونصف قرن بعد الفتح العربى لمصر سنة ٦٤١ م .

(٢) مقياس « قيسارية الاكسية » وكان واقعا بمصر القديمةعلىمقربة من حصن بابيلون ، وأمره غامض ، وقـد ورد ذكره فى ياقوت والمقريزى وابن تغرى بردى ، ثم عفت معالمه فى صدر العصر الاسلامى .

(٣) مقياس « قصر الشمع » أو حصن بابيلون بمصر القديمة وكانت مياه النيل واصلة اليه فى ذلك الوقت .

(٤) مقياس حلوان ، أنشأه عبد العزيز بن مروان عندما نزح بعاصمة البلاد من مصر القديمة الى بقعة تبعد عشرة أميال جنوبها ؛ فابتنى المقياس الجديد بالعاصمة الجديدة هنالك مابين سنتى ٦٥ـ٨٦ هـ / ٦٨٥ـ٧٠٥م .

(٥) مقياس الروضة الواقع على الطرف الجنوبى من الجزيرة ، بنـاه أصلا فى سنة ٧١٥ م أسـامةبن زيد التنوخى أمير الخراج فى عهد الوليد (٨٦ ـ ٩٦ هـ / ٧٠٥ ـ ٧١٥ م) وسليمان بن عبد الملك (٩٦ ـ ٩٩هـ/ ٧١٥ ـ ٧١٧ م) ، ثم تجدد أو بنى آخر غيره فى نفس المكان فى عهد المتوكل سنة ٨٦١ م .

(٦) مقياس الروضة الغربى بناه أحمد بن طولون مابين ٨٦٨ و ٨٨٣ م على مسافة قدرها نصف ميل من المقياس الجنوبى على شـاطىء الجزيرة الغربى حيث يقال أن آثاره ظلت شاخصة للعيان حتى سنة ١٨٠٠ م ، وكان المقصود من بنائه ضبط القياس عندما تهب الرياح الجنوبية وتعلو الامواج فى المقياس الجنوبى .

(٧) مقياس الخازن عند مرسى السفن على شاطىء مصر القديمة ، بنى فى عهد الاخشيديين بين ٣٢٣ـ٣٥٧ هـ / ٩٣٥ـ٩٦٨ م ، ويقال ان اسم

بانيه أبو بكر محمد بن عبد الله الخازن ، وذكره ياقوت وابن دقماق وابن تغرى بردى وغيرهم ؛ وقد عفت معالمه ولم يعثر له على أثر .

ولاشك أن أهم هذه المقاييس وأبقاها هو مقياس الروضة الجنوبى ، وقد أفرد له المؤلف فصلا جمع فيه ماقيل فى وصفه من الاصول التاريخية ، واتبع فى علاج موضوعه طريقة لها طرافتها ، اذ بدأ بالكتاب المحدثين فى القرن التاسع عشر ورجع القهقرى الى القرن التاسع الميلادى ؛ فأخذ عن لوبير (Le Père) ومارسيل (Marcel) سنة ١٧٩٨ــ١٨٠٠م فى الحملة الفرنسية. ثم الاسحاقى سنة ١٦٢٣ م فالمقريزى فى القرن الخامس عشر ؛ وابن دقماق حوالى سنة ١٤٠٠م . وابن ايبك سنة ١٣٣٣م ؛ وابن خلكان سنة ١٢٥٦ م؛ والقزوينى فى القرن الثالث عشر ؛ وابن جبير سنة ١١٨٣ م ؛ والادريسى حوالى ١١٥٤م . والمسعودى سنة ٩٤٣ ــ ٩٤٤ م ؛ واحمد بن الحاسب سنة ٨٦١ م . وديونيسيوس الانطاكى بطريرك اليعاقبة سنة ٨٣٢ م .

وبعد أن يتحدث المؤلف عن النقوش التى على المقياس ، وعن ارتفاع الفيضان الى الستة عشر ذراعا التقليدية لجباية الخراج ؛ وعن شق الخليج، وغير ذلك من الموضوعات ؛ ينتقل الى القسم الثانى وهو القسم الاكبر من الكتاب ؛ جله عن أحصاء أرقام ارتفاع مياه النيل من الاصول التاريخية فى بابين : أولهما يشتمل على الارقام التى وردت فى كتابات ابن تغرى بردى وابن الحجازى وابن اياس وابن ايبك وابن الفرات وابن الفخرى والمقريزى والقلقشندى وعبد اللطيف البغدادى والمسعودى عن الفترة التالية للفتح العربى من سنة ٦٤١ م الى سنة ١٥٢٢ م . وثانيهما من سنة ١٥٢٣ م الى سنة ١٨٩٠ م أخذ أرقام جداولها عن على باشا مبارك والامير عمر طوسون وبعض الرحالة الاوربيين .

وعلى ضوء تلك الجداول يدرس المؤلف النهايات العظمى والصغرى للفيضان بالذراع والاصبع ؛ ويقارن بعضها ببعض ، من عام الى عام ، ومن عصر الى عصر . ويطلع من هذه البحوث الطويلة المضنية بست نتائج

يجملها فى مقدمة الكتاب لتصحيح الاوضاع الشائعة عن المقياس ، والذبذبة الحاصلة فى ضبط طول الذراع والاختلاف فى تقديره من عهد الى عهد ، وعن تحديد نقطة الصفر التى يبدأ منها القياس فى قاع بئر المقياس ، وسلسلة التقاويم التى يرتبط بها تاريخ الفيضان ، والحكم على تكامل الفيضان عندما تصل مياهه الى الستة عشر ذراعا التقليدية ، والارتفاع المضطرد فى قاع النهر بتراكم الغرين وما يترتب عليه من ارتفاع سطح مياهه . وكل هذه مشكلات كبرى يعجب القارىء كل العجب اذ يدرك أن كاتبها وصل الى تحقيقها من مصادر أدبية فى وقت لم تكن العلوم الرياضية والهندسة المدنية قد بلغت فيه شأوا يمكن الباحث من معالجة هذا الموضوع دون كبير عناء .

لاغرابة اذن أن يكون وليام بيير فى شيخوخته موضع تبجيل تلاميذه وزملائه وأصدقائه الكثيرين الذين لم يترددوا لحظة فى المساهمة فى ذلك المجلد العلمى الكبير فى الدراسات الشرقية والسامية لاهدائه اليه . ويشتمل هذا المجلد على أربعة وثلاثين مقالا ليس من اليسير أن نلم بتحليلها فى هذه الصفحات العابرة ، ونكتفى بالتدليل على بعضها «١» مما نظن أنه يهم أغلبية قراء العربية فيما يلى من السطور :

Peter A. Boodberg : Three Notes on T'u- chüch Turks. Pages 1 —11.
Walter J. Fischel : Ibn Khaldûn's Activities in Mamluk Egypt (1382—1406). Pages 103 — 123.

William M. Green : Augustine's Use of Punic. Pages 179 — 190.

Ernst H. Kantorowicz : Dante's « Two Suns ». Pages 217 — 231.

A.L. Kroeber : The Novel in Asia and Europe. Pages 233 — 241.

Waclaw Lednicki : Ex Oriente Lux (Mickiewicz and Pushkin). Pages 243 — 261.

C. Grant Loomis : The Genesis and the Influence of the Metrical Psalms of Martin Opitz. Pages 285 — 296.

Henry L. F. Lutz : Plaga Septentrionalis in Sumero - Akkadian Mythology. Pages 297 — 309.

Otto Maenchen - Helfen : Arabic Nomenclature in the Characters of Lope de Vega's Plays. Pages 339 — 343.

---

(١) ذكرنا البحوث التى لها علاقة بالشرق الاوسط مع أسماء مؤلفيها والصفحات التى ظهرت عليها فى هذا المجلد .

Leonardo Olschki : The Wise Men of the East in Oriental Traditions. Pages 375 — 395.

George Rentz : Pearling in the Persian Gulf. Pages 397 — 402.

Edward H. Schafer : Iranian Merchants in T'ang Dynasty Tales. Pages 403—422.

H.R.W. Smith : A. Meeting of East and West. Pages 423 — 427.

Ronald N. Walpole : Charlemagne's Journey to the East. — The French Translation of the Legend of Pierre de Beauvais. Pages 433 — 456.

ومهما يكن من شيء فان هنالك ملاحظة أخيرة لابد من تسجيلها فى ختام هذا المقال . ألا وهى أن ظهور هذا الكتاب التذكارى الذى نحن بصدده جاء فى نفس العام — عام ١٩٥١ — الذى طلع فيه وليم بيرز على الناس بكتابه « مقياس النيل » . ولهذا الاتفاق معناه ومغزاه ؛ فالرجل اذن لم يطو سجل جهاده العلمى بهذا التكريم أو التتويج . ولو أن ذلك أصبح أمرا طبيعيا بعد أن توافر على نشر المجلدات تباعا زهاء مدة تربو على نصف قرن من حياته الزاخرة . بل أننا نراه اليوم فى شيخوخته يواصل يومه بأمسه فى الجد والاجتهاد والانتاج العلمى ، وهو يجاهر بأن كتاب المقياس الذى نشره وقد قارب نهاية الحلقة الثامنة من العمر انما هو الحلقة الاولى من سلسلة من الدراسات التى يعمل على اتمامها اذا أسعفته الايام وأمهلته الاقدار .

عزيز سوريال عطيه